

الخلافة والملك

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون.

الموعد الله يا من انحرفوا بالحكم الإسلامي من خلافة راشدة هادية مهدية إلى ملك عاض فملكٍ جبريٍّ.

"الموعد الله" كلمة قالها للحجاج بن يوسف رمز الجور كُميل بن زياد. قال له: "اقضِ ما أنت قاضٍ وبعد القتل الحساب" فأمر بضرب عنقه.

"الموعد الله" كتبها سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ليزيد بن معاوية حين دعاه لبيعته. قال رافضا في رسالة طويلة: "الموعد الله، وكفى بالله للمظلومين ناصرا من الظالمين".

الموعد الله يا من يسعون لإقامة الحكم الإسلامي الرائد تعرُّضا لموعود رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبرنا أنها تكون بعد العض والجبر خلافة ثانية على منهاج النبوة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يقرأون كلماتي هذه. الموعد الله لتُجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، ولينال المجاهدون في سبيل الله ما وُعدوا من فضل الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا مــن يعلمــون الأمة دينها لتنفض عنهــا خمــول القــرون، وســكون الخضوع للظالمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا مــن يوقظــون الوسنان الغافل عن الله، الناسي آخرته ليــنهض مقــبلا على ربه، مشمِّراً عن ذيول جده، مستعدا ليوم لا ريــب فيه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يــا مــن يــدلون المومنين والمومنات الراجعين إلى ربهم من قبور الغفلة وذل الاستكانة أن ذروة سنام الإســلام الإحــسان، وأن زينة الإسلام الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يصبرون مع جند الله في مواطن الصبر حتى يستقيم عُود الدعوة ويتأهل جند الله لحمل أمانة الدين كاملة: أمانة الدعوة والدولة مقترنَتَيْن غيرَ منقوضة إحداهما عن الأخرى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيتها الأجيال النافرة من مذهب كل خامل مُتداع ومقلد قابع عند مألوف عادته ووَداعته، أجيالٍ تُلبي داعي الله وداعي رسوله صلى الله عليه وسلم إلى تبليغ رسالة الله ورسوله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيتها الأجيال العالمة المعلمة، الطاهرة المطهرة. علموا أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما هو الدين القيم:

- في سلوك العبد إلى ربه ساعيا لنيل مرضاته والمقامات العليا في مقعد الصدق عنده.

- في ميدان الحكم حيث يتقرر مصير الأمة.

- في نور العلم والتنوُّر به حتى تنقشع عن القلوب والعقول غَشاوات الجهل.

- في كرامة العزة بالله، كرامة ترفض الظلم وتقيم دولة العدل.

- في أمانة حمل رسالة الله إلى العالمين مبلغين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة الرحمة والحكمة.

- في أمانة تربية الإنسان على الدين الكامل: إسلام وإيمان وإحسان.

- في الصبر على زعازع ما يفتحه الله عــز وجــل على الإنسان من بلايا تشيب لهولهــا الوِلــدان. ممــا تخترعه عقول مخترعة، وخيالات مبدعــة، ومُلهيــات مصَدّعة.

- في اليقظة القلبية العقلية العالمة الباصرة، تهفــو قلوبنا، وتتطلع هممنا لرضى الله، ولقــاء الله، مقبلــين على الله، غيرَ ناكضين ولا مبدلين لكلمات الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتــه أيتهــا الأجيــال الصالحة المصلحة الجاهرة بالحق القائمة على الحق، لا يضرها إن شاء الله كيدُ المخالِف، ولا ترَبص العدو، ولا وسوسة النفس والشيطان. ولا يُغريها سفــساف الــدنيا وغُرورها كما يُغرى التــافهين القاعــدين فــي الــدنيا المغبونين في الآخرة.

الموعد الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته يـــا من يقف على هذه الكلمات ويدعو بخير.

عبد السلام ياسين

سلا، ليلة الإثنين 6 شعبان 1420

الفصل الأول

خليفة أنا أم ملك؟

خليفة أنا أم ملك؟

الخلافة للدين والدنيا

ظاهرة فريدة

نظام قرآني

صورتان

وجه خليفة

وجه ملك

خليفة أنا أم ملك؟

أخرج ابن سعد في الطبقات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسلمان: "أمَلِكٌ أنا أم خليفة؟" فقال له سلمان: "إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقلَّ أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة! فاستعبر (بكى) عمر". وأخرج أيضا عن عمر أنه قال: "والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك! فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم! قال قائل: يا أمير المومنين! إنَّ بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا، ولا يضعه إلا في حق. وأنت بحمد الله كذلك. والملك يعْسِف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا".

لم يكن الصحابة يتخيلون أن الخيانة يمكن أن تتجاوز التعسف في الأموال إلى اللعب بالدين. لذلك أعطوا هذا

المعيار الساذج الذي يشتمل في الحقيقة على دراية بموطن الضعف في البشر: حبِّهم للمال. وكان خلفاء النبوة عدولا في الأموال من جملة ما حازوا من فضل. فقد أحيوا الدين روحا وجسما، عدلا واقتصادا، دعوة وجهادا. قال القاضي الماوردي: "إن الخلفاء الراشدين كانوا لا يرون الخلافة إلا لإحياء الدين ولا الإمارة إلا لصالح المسلمين. وكانوا أهل رأفة بالمومنين. سيرتُهم العدلُ، وقولهم الفصل. وقضاؤهم الحق. وكلامهم الصدقُ. وقد لبسوا المُسوح والصوف. وجردوا السيوف، يضربون بها وجوه الكفار. وأخذوا السياط، يقمعون بها رؤوس الفُجّار. حتى فتحوا الفتوح، وهزموا الجيوش، وقهروا الجبابرة، وقتلوا الفراعنة. وأظهروا نور الحق في الغرب والشرق. ظاهرهم الخشوع،

وباطنهم الخضوع لله. وبغيتهم الآخــرة، والاســتخفاف بالدنيا. جعلوها تحت أقدامهم، إذ عرفوها حق معرفتها. ووضعوها في منــزلتها".[1]

الخلافة للدين والدنيا

كان هم الآخرة وخوفُ الله يمــلأ جــوانح الخلفــاء الراشدين، وكانوا يدركون أن الملكَ فسادٌ، فيخــافون أن يقترفوا ما يقترفه الملوك. كانوا يعلمــون أن خلافــتهم للنبوة تقتضي منهم إصلاح الدين، فلا يكــون إصــلاح الدنيا بالتعفف عن مال المسلمين إلا وسيلة لتلك الغاية. جعلوا الدنيا تحت أقدامهم، فملكوا الــشهوة والكبريــاء، وهما الداءان الفاتكان، يخربان المجتمع إن أُطْلِقَ لهمــا

[1] كتاب "نصيحة الملوك" نقلا عن فصول نشرها سعيد بنسعيد في هامش كتابه "دولة الخلافة" ص174.

العِنان. ولا شك أن رأس السلطان إمّا أن يزمهما فتصلح الأمة، أو يردیانه فیفشو الفساد في من حوله، الأقــربَ فالأقرب. قال نابغتنا ابن خلدون يُعرف الملك والخلافــة: "إن الملك الطبيعيَّ هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المــصالح الدنيويـــة ودفـــع المــضار. والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الــشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيويـــة الراجعــة إليهــا. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الــشارع إلـــى اعتبارهــا بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عــن صـــاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به".[2]

---

[2] المقدمة ص338.

ظاهرة فريدة

في اصطلاح ابن خلدون يتمثل الملك الطبيعي في رئاسة قبلية مستندة إلى عصبية. في وسط هذه العصبية نواة قوية، عشيرة أشد تلاحما وأكثر رجالا، تفرض نفسها على الكافة "بمقتضى الغرض والشهوة"، أي لمصلحة أصحاب السلطان ورفاهيتهم ونفوذهم. والملك السياسيُّ عنده نظام أسسته العصبية، ثم توسع وتحضر، فاقتضى تشعبُ واجباته أن يسوسه النظر العقلي. وابن خلدون خيرُ مَنْ وَصف الصراع على السلطان في تاريخ المسلمين. هذا الصراع سمة لا تنفك عن طبيعة الملك. تضاف إلى السمة التي صادفناها أولا، وهي التعسف في الأموال. فتجتمع

خصلتا الشهوة والاستكبار، وهو ما سماه ابن خلــدون بالغرض والشهوة.

أما الخلافة فكانَ رجالها يلبسون المُسُوح، ويضعون الدنيا تحت أقدامهم، كما قال الماوردي. وكــانوا أيــضا ــــوهذه ظاهرة فريدة في تــاريخ البــشر- يتــدافعون الرئاسة ويتحامونها، خوفا من تَبِعَتِها، عكسَ ما نعرفــه من تسابُقِ الطبــيعة البشرية إليها.

أخرج أبو نُعيم في "فضائل الصحابة" عن أبي بكــر رضي الله عنه أنه قال: "يا أيهــا النــاس! إن كنـــتم ظنــنــتم أني أخــذت خلافــتكم رغبــة فيهــا أو إرادة استــئــثارٍ عليكم وعلى المسلمين، فلا والــذي نفــسي بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استــئــثارا علــيكم، ولا على أحد من المسلمين. ولا حرصت عليه ليلة ولا يوما

قط. ولا سألت الله سرا ولا علانية. ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لي به إلا أن يعين الله. ولَوَدِدْتُ أنها إلى أيٍّ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يَعْدِلَ فيها. فهي إليكم رَدٌّ! ولا بيعة لكم عندي. فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم". وفي رواية للعشاري أن أبا بكر خطب فقال: "هل من كارهٍ فأُقيلَه؟" فقام إليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال: "لا والله لا نُقيلك ولا نَسْتَقِيلُك! من ذا الذي يُؤَخرك وقد قدَّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟".

وأخرج ابن راهَويـْه وابن خَيْثمة أن أبا بكر رضي الله عنه حين استُخْلِفَ قعد في بيته حزينا. فدخل عليه عمر رضي الله عنه، فأقبل عليه يلومه، وقال: "أنت كلفتني هذا الأمر!" وشكا إليه الحكم بين الناس. فقال

له عمر: "أوما علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الوالي إذا اجتهد فأصاب الحق فله أجران. وإن اجتهد فأخطأ الحق فله أجر واحد؟" فكأنه سهَّلَ على أبي بكر رضي الله عنه".

نظام قرآني

كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يتدافعونها ويحزنون خوف المسؤولية عند الله العزيز العليم. لا جرم أن تنبثق عن هذا التسامي الإيماني دولةٌ قرآنية هي الامتداد الطبيعي لحكم النبوة، ونظام النبوة، وجهاد النبوة، وأخلاق النبوة. كتب الأستاذ حسن البنا عن "الدولة الإسلامية الأولى"، قال: "على قواعد هذا النظام الاجتماعي القرآني الفاضل قامت الدولة الإسلامية

الأولى، تومن به إيمانا عميقا، وتطبقه تطبيقـــا دقيقـــا، وتنشره في العالمين. حتى كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول: "لو ضاع مني عِقال بعير لوجدته في كتــاب الله"، وحتى إنه لَيقاتل مانعي الزكاة، ويعتبرهم مرتدين، بهدمهم هذا الركن من أركان هذا النظام. ويقــول: "والله لو منعوني عِقالا كانوا يُؤَدونه لرســول الله صــلى الله عليه وسلم لقاتلتهم ما استمسك السيف بــيدي".

وكانت الوحدة بكل معانيها ومظاهرها تــشمل هــذه الأمة الناشئة. فالوحدة الاجتماعية شاملة بتعميم نظــام القرآن،، ولغة القرآن. والوحدة السياسية شاملة في ظل أمير المومنين، وتحت لواء الخلافة في العاصمة. ولــم يَحُلْ دونها أنْ كانت الفكرة الإسلامية فكرة لا مركزيــة

في الجيوش، وفي بيوت المال، وفي تصرفات الوُلاَة. إذْ أنَّ الجميع يعملون بعقيدة واحدة وبتوجيه عام متحد.

ولقد طاردت هذه المبادئ القرآنية الوثــنيةَ المخرفةَ في جزيرة العرب، وبــلاد الفــرس، فقــضت عليهــا. وطاردت اليهودية الماكرة، فحصرتها في نطاق ضــيق، وقضت على سلطانها الديني والسياسي قــضاء تامــا. وصارعت المسيحية حتى انحصر ظلها في قارتي آســيا وإفريقيا، وانحازت إلى أوربا في ظل الدولة الرومانيــة الشرقية بالقسطنطينية.

وتركز بذلك السلطان الروحــي والــسياسي للدولــة الإسلامية في القارتين العظيمتين. وألَحَّت بالغزو علــى القارة الثالثــة، تهــاجم القــسطنطينية مــن الــشرق، وتحاصرها حتى يَجْهَدَها الحصار. وتأتيها من الغــرب،

فتقتحم الأندلس. وتصل جنودُها المظفــرة إلـــى قلـــب فرنسا، وإلى شمال وجنوب إيطاليا. وتقيم فـــي غــرب أوربا دولة شامخة البنيان، مشرقة بـــالعلم والعرفـــان. ويتم لها بعد ذلك فتح القـــسطنطينية نفـــسِها، وحـــصرُ المسيحية في هذا الجزء المحدود من قلب أوربا.

وتمخُر الأساطيل الإسلامية عُباب البحرين الأبـــيض والأحمر، فيصيرُ كل منهما بحِيزَةٍ إســـلامية. وتقـــبض قوات الدول الإسلامية بذلك على مفـــاتيح البحـــار فـــي الشرق والغرب. وتتم لها السيادة البرية والبحرية.

وقد اتصلت هذه الأمم الإسلامية بغيرها من الأمـــم، ونقلت كثيرا من الحضارات. ولكنها تغلبت بقوة إيمانها، ومتانة نظامها، عليهـــا جميعـــا. فعربتهـــا أو كـــادت. واستطاعت أن تصبغها، وأن تحملها على لغتها ودينها،

بما فيها من روعة وحيوية وجمال. ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية".[3]

كتب الإمام البنا رحمه الله هـذا قبـل أن يتعـرض لأسباب الانحلال في كيان دولة الإسلام.ونراه سحب اسم "الدولة الإسلامية الأولى" على عهود شـملت الخلافـة الراشدة والملك العاض حتى فتوح آل عثمـان رحمهـم الله. ولا شك أن ما بقي من سِمات الخير في الأمة بعـد فساد الحكم مرجعُه إلى قـوة دولـة القـرآن النبويـة والراشدة التي سَرَتْ قوتها للتاريخ اللاحق رغم تخريب الملوك. هذا بالإضافة إلى أنَّ من هؤلاء الملـوك مـن كانوا فضلاء أحيوا ما استطاعوا من الدين. وما يستطيع أن يصلح شخص عابر إذا بقي النظام بعده فاسدا؟

---

[3] رسالة "بين الأمس واليوم".

صورتان

نقف عند صورتين، صورةٍ لخليفة وصورةٍ لملك من ذلك العهد الأول. ولن يحجب عنا وجه الرجل الذي نتأمله ما خَلْفَه، ابتداء من الذين رفعوه إلى سدة الحكم، وانتهاء بحالة المجتمع كافة، من حيث قابليتُه للخضوع لسطوة الجبارين، أو استعصاؤه عليها. من حيث وجودُ أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أو قهَرها السياط والقتل. فإنه ما صَنَعَ تاريخ المسلمين أشخاص منفردون مهما علت مرتبتهم كما يتصور القارئ العامي للتاريخ. إنما صَنَعَه ما هنالك من مصلحة أخروية جمعت الأمة، فهي ترعى تلك المصلحة العليا فيستقيم لها الأمر، ويكون ولي أمرها الذي نصبته

واختارته مرآة تجلو وجه الأمة. أو تهيمن المصالح الدنيوية و"الغرض والشهوة"، ويستكين العباد للظلم، فيحكم السيف، ويعلو الأوباش، وتُوطأ كرامة الأمة. الصنع صنع الله لا رب غيره، ويبوء العباد بما كسبت أيديهم.

وجه خليفة

وصف الإمام علي كرم الله وجهه عمر بن الخطاب قال: "لله در فلان فقد قوَّمَ الأوَدَ، وداوَى العَمَدَ. خلَّفَ الفتنة، وأقامَ السنة. ذهب نقيَّ الثوب، قليلَ العيب. أصابَ خيرها، وسبق شرها. أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه".[4]

---

[4] نهج البلاغة ج 2 ص222.

نعم! قد يكون الشخص الجالس على سدة السلطان علَمَ هُدىً، ومناراً للأمة، إذا كان مثلَ عمر. ويحدث بذهابه ثلم في صرح الأمة فتتشعب بهم الطرق. لا نكرانَ لأهمية الأشخاص في الصلاح والفساد. لكن النظام هو مناطُ الخير والشر في المرتبة الأولى. قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب "التمهيد": "فلم يخب في عمر رأيُه (رأي أبي بكر الذي استخلفه)، ولا خاب ظنه. بل زاد على ما أمَّله منه، وقدَّره فيه. وظهر من جَلَده وشِدته في الله وصرامته ما لا خفاء به. ففتح الفتوح، وجند الأجناد، ومصَّر الأمصار، واستأصل الملوك، واستولى على ديارهم،(...) وصَلُحَ بنظره الحاضر والبادي، والقاصي والداني، وقوَّمهم بالدِّرَّة دون السيف، وأقام الدعوة، وقال: "لئن عشت للمسلمين

ليـــبلُغَنَّ الراعيَ حقُّه بعَدَنَ من هذا المال". متواضعا في جميع ذلك لربه، خاشعا لأمره، غير وانٍ في شيء ممـــا يَلْزَمُه القيامُ به. لا تغَيِّرُه الإمْرَة، ولا تُبْطِرُه النعمة، ولا يستطيل على مومن بسلطانه، ولا يُحابي أحدا في الحق لِعِظَمِ شأنه، ولا يدع استخراجه للـــضعيف لـــضعفه، ولا تأخذه في الله لومة لائم. يحمل الجَرَّة بنفـــسه، ويلـــبس المرقع، ويـــباشر نفقة الأرامل وأهل المنـــازل بنفـــسه، ويطوف عليهم في ليله ونهـــاره (...). قالـــت عائـــشة وعبد الرحمان وعمرو ابن العاص وغيرهم من الصحابة ممن وصفه: إن عمر أبدت له الدنيا زينـــتها وزخرفها، وألقت إليه أفلاذ كبدها، يعني كنـــوز الـــذهب، فمـــشى ضحضاحها (كأنها نهر عبره من مخاضة قليلة العمق)، وخرج منها سليما ما ابتلَّتْ قدماه".[5]

---

[5] نصوص الفكر السياسي الإسلامي. جمع يوسف أيْبش ص72.

لا شك أن تأثير القيادة القوية كبير على سير الجماعة. لكن إذا كانت الجماعة منحلة والعصبية غالبة فما جدوى رجل أو حفنة رجال؟ مع عمر، ومن ورائه مؤيدين متعاونين، كان رجال ونساء لا تغرهم المظاهر، ولا تأخذهم شخصية رجل فذ. بل كانوا يقيسون شؤون الدنيا بمعايير الإيمان. فكان عمر في عينهم، قبل كل شيء، هو الرجل الذي "مشى ضحضاحها وخرج منها سليما ما ابتلت قدماه". كان شأنُ الآخرة عندهم هو الشأن. أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون.

وجه ملك

نورد هنا صورة ملك لا لثلب الموتى، لكن لتتضح لنا معالم الفرق بين الخلافة والملك. ولنعرف بالمثال الحيّ التاريخي ما يجب أن ننقطع عنه، وهو نظام العض والجبر، وما يجب أن نحييه ونصل حبلنا به، وهو نظام الخلافة.

روى الإمام البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرني جدي قال: "كنت جالسا مع أبي هريرة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومعنا مروان. قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: "هَلَكَةُ أمتي على يديْ غِلْمَةٍ من قريش. فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمَةً! فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان، لفعلت". فكنت أخرج مع

جدي إلى بني مروان حين ملكوا الشام، فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم! قلنا: أنت أعلم". والحديث عند الإمام أحمد من طرق متعددة.

بدأ الغِلمة المفسدون من يزيد ثم مروان الذي سمعناه يلعن الغلمة قبل أن تكشف الأيام أنه زعيمُهم. ثم فشا الفساد والإفساد في ذريته وشيعة بني أمية، حاشا بعضَ الصالحين منهم، وهم قلة إمامُهم الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان نموذج الملك الساقط. كان "ماجنا سفيها يشرب الخمر، ويقطع دهره باللهو والغزل. ويقول أشعار المغنين، ويعمل فيها الألحان". وكان يجاهر بفسقه وزندقته لا يتَخَفَّى. وكان

أولَ من حمل المغنين والمُجَّان إلى عاصمة الملك من كل الأقطار. ويَرْوي المؤرخون أن كفره بلغ بــه أن عــزم على بناء سطح الكعبة قبة يشرب فيها الخمر. ولا يتسع المقام هنا ولا يسمح التعفف أن نذكر كلامــه الــساقط. تكفي قصة كفره يوم فتح المصحف يستفتح بآياته، فقرأ آيات تهدد بالعذاب وهي قوله تعالى: (واستفتحوا، وخاب كل جبار عنيد، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد)[6] فقال شعرا:

[6] سورة إبراهيم، الآيتان 15-16.

تهـــــددنـــــــي بجـــبــــــار

عـــــنــيـــــــد فهــــا أنـــا ذاك

جـــبــــــار عـــنـــيــــــــد

فإن لاقيت ربك يوم حشر فــقـــــــل يا

رب مـــزقـــني الولــــيــــــــد

ومزق المصحف. وقال وقد ذُكـــرت عنـــده الآخـــرةُ والحساب:

تذكرني الحساب ولست أدري أحـــــقــــــــــا ما

تقـــــــول من الحــــســــــاب

فــــــقـــــــل لله

يمـــنــــعـــــــنـــــي طعـــــــــــامــــي

وقـــــل لله يمــــنـــعـنــــي شـــــــرابـــــــي".[7]

تصور ما تكون عليه أحوال الدولة وأمــوال الأمــة وأعراضها تحت غلام هالك مهلك مثل هذا. كان يــبــيع الرتب المدنية والعسكرية ويجبي الأموال لينفقها علــى سفهاء بلاطه ومحظياته. توج فساده بأن أرغم النــاس على بيعة صبيــين بولاية العهد بعده.

كان الويل قد بلغ الدركة السفلى بنظام الحكم، فكيف حدث هذا؟

[7] شذرات الذهب ج 1 ص170-171 ملخصا.

الفصل الثاني

الانكسار التاريخي

خلفاء الله في الأرض

الإمام الشهيد

حمية الجاهلية تستيقظ

خلفاء الله في الأرض

قال الله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملـــوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما اســـتخلف الـــذين من قبلهم، وليمكنن لهم ديـــنهم الـــذي ارتـــضى لهـــم، وليـــبدلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدونني لا يـــشركون بي شيئا. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).[8]

قال أبو بكر بن العربي في تفسير هذه الآية: " قـــال علماؤنا: هذه الآية وعدُ حقٍّ، وقول صدق، يـــدل ذلـــك على صحة إمامة الخلفاء الأربعة، لأنه لم يتقدمهم أحـــد في الفضيلة إلى يومنا هذا. فأولئك مقطـــوع بإمـــامتهم، متفق عليهم. وصدَقَ وعدُ الله فيهم. وكانوا على الـــدين الذي ارتضى لهم. واستقر الأمر لهم. وقاموا بـــسياسة

---

[8] سورة النور، الآية 55.

المسلمين، وذبوا عن حوزة الدين. فنفذ الوعد فيهم(...). قام أبو بكر بدعوة الحق، واتفاق الخلق (انتخاب الصحابة إياه)، وواضح الحجة، وبرهان الدين، وأدلة اليقين. فبايعه الصحابة. ثم استخلف عمر فلزمت الخلافة، ووجبت النيابة، وتعين السمع والطاعة. ثم جعلها عمر شورى، فصارت لعثمان بالنظر الصحيح، والتبجيل الصريح، والمسَاقِ الفسيح(...). ثم قُتل عثمان مظلوما في نفسه، مظلوما جميعُ الخلقِ فيه. فلم يبق إلا عليٌّ، أخْذاً بالأفضل فالأفضلِ، وانتقالا من الأوَّل إلى الأول".[9]

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك لأصحابه وصية فيما يتعلق بالحكم إلا استخلافه أبا بكر على الصلاة. فاستنبط منها الصحابة دليلا على أحقية

---

[9] أحكام القرآن ج 3 ص1380-1381.

أبي بكر، إذ قالوا: "رجل رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟". فبعد مناقشة المسألة في سقيفة بني ساعدة، اجتمع رأيهم على أبي بكر الصديق فبايعوه. وكان تنافس الأنصار والمهاجرين على الإمارة في افتتاح ذلك المجلس تسابُقا إلى الخير ما خَلّفَ حزازات. وطوت الأيام سريعا ذلك النقاش في ظل الأخوَّة، وفي ظل جلائل الأعمال.

ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذه الوصيةَ الجامعة التي رواها عن ابن مسعود كل من البزار والطبراني في الأوسط وابن سعد وابن أبي الدنيا، قال ابن مسعود: "دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق. فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم

قال: مرحبا بكم! حياكم الله! آواكم الله! نصركم الله! وأوصيكم بتقوى الله. وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، ألاّ تعلوا على الله في بلاده وعباده. وقد دنا المُنْقَلَبُ والمَرْجِعُ إلى الله، وإلى سِدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، وإلى الكأس الأوفى. فاقرأوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي السلام ورحمة الله".

كان العلو في الأرض والاستكبار على العباد أهمَّ ما حذر منه الأمة في وصيته النذيرُ المبين صلى الله عليه وسلم. فعاشت الأمة ثلاث سنوات في خلافة أبي بكر كلها جهاد للقضاء على تمرد الأعراب وردتهم، حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين كله لله. ثم جاءت خلافة عمر فازدهرت الأمة، حتى ظهر قرنُ الفتنة في جريمة اغتيال الخليفة العادل، على يد غلام جاهلي، اندس في

المجتمع الإسلامي، فكان رأسَ الحَرْبَةِ لقُوَى العصبــية الصاعدة مع توسع رقعة دار الإســلام، ومــوت خيــار الصحابة، وتشتت باقيهم في الأمصار.

الإمام الشهيد

تحولت بُنية المجتمع الإسلامي بــسرعة كبـــيرة، فدخل في دين الله أمم كثيرة طوعا وإيمانـــا، أو حفاظــا على الأرض والمال والحرية. فلما انـــتخب الــصحابة أهلُ الشورى الإمامَ الشهيدَ عثمــان رضــي الله عنــه، سارت الأمور على الوتيرة الأولى صدرا من خلافته. ثم التف بنو أمية من حوله، وكوّنوا بطانة ما لبــثــت أن استبدت بالأمر. وارتكبت الفظائع فاستيقظ العنف. وكان مقتلُ الإمام الشهيد رضي الله عنه الشَّقَّ الذي أخذ يتسع

بما أحدث من نـــتائج تاريخية حتى شكل بداية انكسارنا ووهنـــنا.

نشِبَـــتِ الفتـــنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضـــي الله عنه، واجتماع الصحابة على سيدنا علي كرم الله وجهه. قام أهل الشام يطالبون بدم الشهيد، فنازعوا إمام الأمة، واتخذوا ذريعةً لقتاله وجـودَ طوائـــف مـــن الغوغـــاء الثائرين على عثمان تحت ألويته. قـــال القاضـــي ابـــن العربي يذكر الفتـــنة بعد مبايعة الإمام عليٍّ رضـــي الله عنه: "لأن عثمانَ رضي الله عنه قُتِلَ والصحابة بُـــرَءاءُ من دمه . لأنه مَنَعَ من قتال من ثار عليـــه، وقـــال: لا أكون أوَّلَ من خَلَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالقتل. فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة، وفَدَى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن تَرْكُ الناس سُـــدىً.فعُرِضَـــت

الإمامةَ على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها. وكان عليٌّ أحقَّ بها وأهلها. فقبلها حَوْطَةً على الأمة أن تُسْفَكَ دماؤها بالتهارج والباطل. ويتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. وربما تغير الدين، وانْقَضَّ عَمودُ الإسلام.

فلما بويع له طلب أهلُ الشام في شرط البيعة التمكينَ من قتَلَةِ عثمان، وأخْذَ القَوَدِ منهم. فقال لهم علي: ادخلوا في البيعة، واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعةً وقتَلَةُ عثمانَ معك نراهم صباحا ومساء. فكان علي في ذلك أسدَّ رأيا، وأصوب قولا. لأنَّ عليا لو تعاطى القَوَدَ منْهم لتعصبت لهم القبائل، وصارت حربا ثالثة. فانتظر بهم أن يستوثق الأمْرَ، وتنعقدَ

البَــيْعَةُ العامّة. ويقع الطلبُ من الأولياء فــي مجلــس الحكم. فيُجْرِيَ القضاءَ بالحق".[10]

نلاحظ في نثر فقيهنا وقاضينا أبي بكر تغاضيا حَيــيّاً عن ذكر ما نشِب بين الصحابة من نزاع وقتال. فيتخطى حرب الجمل وكارثة صفين، ويُرْجِعُ النـــزاعَ إلــى دمٍ يطالب به الأولياءُ، وكأنَّ المسألة نازلة فقهية يحكم فيها القضاء. وهكذا أمسك علماؤنا، وأوصَوْا بالإمساك، عن ذكر تلك المآسي الدموية. ولئن كــان نَــبْشُ الماضــي للوقوف عنده، والتعرض للصحابة الكرام بالنقــد وقــد قُضِيَ ذلك الأمرُ، مِمَّا لا يعني الشحيح بدينه، فإن رفــع جانب من الستار بقدر ما نــتبــين الأسباب التاريخيــة للانكسار المُرِيع واجبٌ. ولن نفهم منهاج إعادة الخلافة

---

[10] أحكام القرآن ج 4 ص1706.

إن بقينا نغَطّي وجوهنا كلما ذكرت تلك الفتــرة العنيفــة والِدَةُ كلٍّ ويلاتــنا.

وقد خصص القاضي أبو بكر كتابه "العواصــم مــن القواصم" للدفاع عن بني أمية رحمـــه الله وعفــا عنــا وعنه.

لندع الأشــخاص ومــا يمكــن أن يكــون سبـــبا لنـــزاعهم. ولنعتبر بالزيغ الديني، والخلَل الاجتمــاعي، كما كنا التمسنا الأسوة بالنموذج الكامل.

حمية الجاهلية تستيقظ

وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعا تــربط أفراده عصبــية القبــيلة والعشيرة والقُرْبَــى. فحــافظ على هذا الرباط لم يكسره. لكن وجَّهَ ما يمثله من قــوة

لخدمة الوَلاية بين المومنين. لـــم يـــأمر المـــسلمين أن يتـــنكروا للقبـــيلة والعشيرة من حيث كونُهـــا قبـــيلة وعشيرة. إنما أمر بمقاطعة الكفر. نقـــرأ فـــي الـــسيرة النبوية كيف دخل مكة وجُنْدُه كتائبُ منظمَة، كل قبـــيلة على حِدَةٍ. فكان شعور المرء بوَلاية الإســـلام يتعَـــضَّد ويَقوَى بشعوره بالأمن بين العشيرة والأهل.

وكان للتضامن الأسَرِيِّ والعشيري شأن فـــي بعثـــة الأنبـــياء. قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: "قـــال لوط: (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد)[11] قال: قد كان يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته. فمـــا بعث الله عز وجل بعده نبـــيا إلا بعثه في ذِرْوَةِ قوْمِـــهِ. قال أبو عمر: فما بعث الله نبـــيا بعده إلا بعثه الله عـــز

[11] سورة هود، الآية 80.

وجل في مَنَعَةٍ من قومه". رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة.

هكذا يريد الله ورسوله أن تكون لُحمةُ النسب والعشيرة سنَداً للدعوة. لكن عندما تكون العصبيةُ القبليةُ قوةً مضادة للإسلام فالإسلام يحاربها. نقل ابن كثير أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يَنْزِعُ بذنبه". وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية". وروى البخاري عن جابر قال: "كنا في غَزاة فكَسَعَ (ضربه على ظهره) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري: ياللأنصار! فقال المهاجريُّ:

يالَلْمهاجرين! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دَعوها! إنها مُنْتِنَةٌ!".

الحمية الجاهلية هي التناصر على الباطل. والمثل العربي يقول: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، يطبقُ المُعْصوصبون للقبيلة هذه المقالة تطبيقا حرفيا. فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة هذه الكلمة حيثُ قال فيما رواه الإمامان أحمد والبخاري عن الحسن: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما!" قيل: يا رسول الله! هذا أنصرُهُ مظلوما، فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: "تحجُزُهُ! تمْنَعه! فإنَّ ذلك نصرُه".

قال ابن خلدون يصف توسع دار الإسلام، وأعرابية القبائل، واستيقاظ العصبية الجاهلية: "وكان أكثر العرب الذين نزلوا في هذه الأمصار جُفاة لم يستكثروا

من صُحبة النبي صلى الله عليـــه وســـلم، ولا هــذبتهم سيرته وآدابه، ولا ارتاضوا بخُلُقه. مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء، والعصبـــية، والتفاخر، والبُعْدِ عن سكينة الإيمان. وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في مَلَكَةِ المهاجرين والأنصار مـــن قـــريش، وكنانـــة، وثقيف، وهذيل، وأهلِ الحجاز ويثرب السابقين الأولـــين إلى الإيمان. فاستَنْكَفوا من ذلك، وغُصّوا به لِما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم، وكثرتهم، ومصادمة فارسَ والروم، مثلُ قبائل بكر بن وائـــل، وعبـــد القـــيس بـــن ربـــيعة، وقبائل كِنْدَةَ والأزْدِ من اليمن، وتميم وقيس من مُضَر. فصاروا إلى الغض من قريش، والأنَفَة علـــيهم، والتمريضِ في طاعتهم، والتعلّل في ذلك بالتظلم مـــنهم،

والاستعداء عليهم، والطعن فيهم بالعجز عــن الــسَّوِيَّة، والعدل في القَسْمِ عن التسوية".[12]

فقد كان إذنْ من جهة غِلْمَة قريشٍ بقيادة مروانَ بن الحكم، زمرةٌ يستغلون السلطان، عدلوا عن التسوية في القَسم، أي مالوا عما كان عليه الأمر من تسوية الناس في العطاء. وكان من جهة أخرى قبائلُ تطمح للسلطان، وتــنظر إلى عددها، ونسبها، فتُفاخر قريــشا والقبائــل السابقة للإسلام وتــنافسها. لا ســيما والأمــة كانــت مجندة، والصدام مع فارس والروم أعطى كثــرةَ العــدد وصلابة الشوكة أهمية كبــيرة.

وكان من العمال والحكام من اندسوا تحــت بــساط الإمام عثمان رضي الله عنه، فكــانوا قومــا مفــسدين، أعطوا غوغاء القبائل التَّعِلَّةَ اللازمة لإظهار الــسُّخْــط،

---

[12] المقدمة ص380.

ثم التَّمَرُّدِ، ثم الثورةِ، ثم الفتكِ بالزكيِّ الطاهر رضي الله عنه. وقد عزَلَ الإمام بعض العمال ممن سخِطَهم الناس، فلما ضاقت الدائرة حول مروان، وطلبوا أن يُسَلِّم الإمامُ كاتَبه مروان الذي اتهموه بأنه بعث إلى عامــل مــصر يأمره بقتلهم، حلَّفه الإمام فحلف. فقال عثمان رضي الله عنه: "ليس في الحكم أكثرُ من هذا!". يعني أنه لا يلــزَم المتهمَ عند افتقاد البــينة إلاَّ الحلفُ. فحاصروه رحمــه الله حتى قتلوه.

أين غابت القوة الوحيدة التي كانت قادرة على صــد الغوغاء؟ ما فعل بقية الصحابة في المدينــة وإمــامُهم يُغْزَى ويُحاصَر في قعر بــيته؟ هنا ثلْمَةٌ أخرى أدت إلى الانكسار التاريخي. فقد كان الإمام رحمه الله نهاهم عن مواجهة الغزاة بالسيف، مخافةً منه رضي الله عنــه أن

يزيد الفتنة اشتعالا. أما الصحابة، وهم قلة وسط هذا البحر الطامي من القبائل الأعرابية، فقد وقفوا موقف المشدوه مما يرون.

قال الباقلاني في كتاب التمهيد يصف وحشية الغوغاء: "وكان النفر الذين ذُكِر أنهم هجموا عليه من المعروفين دون أتباعهم: الغافقي،وكنانة بن بِشر التجيبي، وسودانُ بن حِمران، وعبد الله بن بُديل بن وَرْقاء، وعمرو بن الحِمق الخُزاعي، في آخرين منهم محمد بن أبي بكر. فتسرع إليه محمد وألقاه لجنبه. وجلس على صدره، وأخذ لحيته فهزها، وغلَّظ له في القول. وذُكر أنه ضرب جبهته بمِشْقَصٍ (موسى حادة) كانت في يده. فلما أراد أن يُثَنِّيَ وعظه عثمان وقال له:

"يَعِزُّ على أبيك أنْ ترقــى هــذا المَرْقــى!" واســتحيى وانصرف. وذُكر أنه لم يَمَسَّهُ في بعض الروايات.

فعرف الغافقي وكنانة أنه انصرف حياء منه. فاقتحما عليه، وبَدَرَهُ التجيــبيُّ بــضربةٍ ألقــاه منهــا لجنبــه. والمصحف في حجره. فلما سقط الدم عليه أطبقــه ثــم نحَّاه. وضــربه غيــرُه.(...) فلمــا رأت نائلــة بنــت الفَرافِصَةِ، زوجُ عثمان، وقعَ الــسيف، بــرزت وألقــت نفسها عليه. فأصابتها ضربةٌ أندرت مــن يــدها ثــلاثَ أصابعِ، وضرب بعض أولئك الفَجَرةِ يده عليها وقال: "ما أكبر عجيزتها! نَفِّلونيهــا (أعطــوني إياهــا، يعتبرهــا سبيّة!)". وصاح الآخرون: الحقوا بيت المال! وأغــاروا بديئاً على رَحْل عثمان وما كان في داره. ثم تــــناولوا ما أمكنهم أخذه في بيت المال، وأضرموا الــدار عليــه

بالنار. فاحترق أكثر أبوابها. وذُكر أن عَمرو بن الحمق قال: "طعنت عثمان تسع طعنات، ثلاث لله وستٌّ لغيره!".[13]

وحشية، ونهب، وفجور، وغوغاء صعقت الصحابة وشلت مبادرتهم. فلما رجعوا إلى أنفسهم، واجتمعوا على الإمام علي كرم الله وجهه، ظنوا لحظة أن الفتنة خمدت. فلما قام أهل الشام بالمطالبة بدم عثمان، واضطرمت نار الحرب بين المسلمين، اعتزل طائفة من الصحابة، وتركت بانسحابها فجوة كبيرة منها دخل على تاريخنا سابقة الحياد مخافة الفتنة. وطائفة كانت شجاعتها في الحق ووقوفها مع المشروعية مثل عمار بن ياسر رضي الله عنه مَعْلَمَةً مَجيدة على طريق الاستشهاد في الحق.

---

[13] نصوص الفكر السياسي الإسلامي ص93-94.

قال الباقلاني: "فإن قال قائل: فإذا كان الأمر في هــذا على ما وصفتم من ظلم القوم له (ظلم الرَّعــاع للإمـــام عثمان) وتَعدِّيهم عليه، فما بال الصحابة لــم يــسارعوا إلى إنكار ذلك وصدِّهم عنه؟ وأيّ عذر لهم في إســلامه والتساهل في خِذلانه؟ قيل له: معاذ الله أن يكون فــيهم من خذله أو قعد عن نصرته عند دعائـــه لهــم. وإنمــا لزموا بيوتهم لأنه أمرهم بذلك وكرره عليهم، وناشــدهم الله عز وجل".[14]

الإمساك مخافة الفتــنة سابقة مكنت الرَّعاع من قتل الإمام عثمان، وأضعفت موقف الإمام علي مــن بعــده. يقول الباقلاني: "فإن قال قائل: فإذا كانت إمامة علي من الصحة والثبوت بحيث وصفتم، فما تقولون فــي تــأخر سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل،

[14] نصوص الفكر السياسي الإسلامي ص96.

وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وسلامة بن وقش، وغير هؤلاء ممــن يكثــر عــددهم، وقعودهم عن نصرته، والدخول في طاعته؟ قيــل لهــم: ليس في جميع القاعدين ممن أسميناه أو أضربنا عــن ذكره من طعن في إمامته، واعتقد فسادها. وإنما قعدوا عن نصرته على حرب المسلمين لتخَوُّفهم مــن ذلــك، وتجنب الإثم فيه، وظنهم موافقة العصيان في طاعته في هذا الفعل. فلذلك احتجوا عليه في القعود ورووا له فيه الأخبار.

وقال منهم قائل (وهو سعد بن أبي وقاص): "لا أقاتل حتى تأتيَني بسيف له لسان يعرف المومن مــن الكــافر ويقول: هذا مومن وهذا كافر! فأستَلّهُ". ولم يقــل: إنــك لست بإمام واجب الطاعة.

وقال له محمد بن مسلمة بعد مراجعته ومعارضـــته: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليَّ إذا وقعت الفتـــنة بين المسلمين أن أكسر سيفي وأتخذَ مكانه سيفا من خشب".[15]

نطوي هذه الصفحة المؤلمة إذ تكفينا العِبرةُ، وتكفينا آلامُ الحاضر الناتجةُ عن تلك الفتـــنة الهوجاء. والقضاء والقدر لله والأمر كله إليه تعالى وتقدس.

[15] نصوص الفكر السياسي الإسلامي ص112-113.

الفصل الثالث

الاختيار وولاية المعصوم

الاختيار وولاية المعصوم

نقرأ رواية البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "إن عليا خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وَجَعه الذي تُوُفي فيه. فقال الناس: يا أبا حسن! كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئا! فأخذ بيده العباسُ بن عبد المطلب، فقال: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا! وإني لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيُتَوفى من وَجَعِه هذا. إني لأعرف وجوهَ بني عبد المطلب عند الموت. فاذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسألَه فيمن هذا الأمر؟ فإن كانَ فينا علمنا ذلك. وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا. فقال علي: أما والله لئن سألناها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فمنَعَنَاهَا لا

يعطيناها الناسُ بعدَه. وإني والله لا أسألُها رســول الله صلى الله عليه وسلم".

ويروي الإمام مسلم حديثا عن عائــشة رضـــي الله عنها قالت: "إن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليــه وسلم والعباسَ أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهما حينــئذ يطلبان أرضــه من فَدَكٍ وسهْمَه من خَيْــبَر. فقال لهما أبو بكــر: إنـــي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نُــورَث، ما تركنا صدقة". الحديث. وفي رواية منــه أن فاطمــة هجرت أبا بكر فلم تكلمه في ذلك الأمــر حتــى ماتــت. ويمضي الحديث قائلا: "فقال رجل للزُّهْرِيِّ: فلم يــبايعه (أي أبا بكر) عليّ ستة أشْهُرٍ؟" فقال: لا والله! ولا أحــد من بني هاشم حتى بايعه علي.

فلما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه (بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها)، ضرع إلى مصالحة أبي بكـــر". ويخطب الإمام علي بمحضر أبي بكر وبني هاشـــم فـــي بيت الإمام عليّ فيقول بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه: "أما بعد، فلم يمنعنا أن نبايعَكَ يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك، ولا نَفاسَةٌ عليك بخيرٍ ساقه الله إليك. ولكن كنا نرى أن لنـــا في هذا الأمر حقا. فاستبددتم علينا. ثم ذكر قرابتَه مـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقهم. فلم يزل علـــيّ يُذَكِّرُهُ حتى بكى أبو بكر".

وبعد خطبة أبي بكر يعتذر فيها عن حبسه الميـــراثَ لحديثٍ سمعَه من رسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم، يتواعدون للبـــيعة عشيَّةً. قال مسلم: "فلما صـــلى أبـــو بكر الظهر أقبل على الناس يَعْذِر عليا (عن تأخره فـــي

البـــيعة) عن بعض ما اعتذر به. ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته. ثم قام إلـــى أبـــي بكر فبايعه. فأقبل الناس علـــى علـــي فقـــالوا: أصـــبت وأحسنت! وكان المسلمون إلى علي قريـــباً حين راجـــع الأمْرَ بالمعروف".

هذان الخبران ناطقـــان بمـــا فيـــه الكفايـــة. وإنمـــا أوردناهما لأنهما أصلان في النصوص بين أيدينا. وبين أيدي إخوتنا الشيعة نصوص تماثلها، شـــكلت الأســـاس العلميّ الذي بُنيَتْ عليه مـــذاهب الـــشيعة فـــي الحكـــم والخلافة والإمامة.

كان الإمام عليٌّ كرم الله وجهه قِمَّةً سامِقةً، فَحْلا من الرجال بكل معاني الفحولة. بسيفه انـــتـــصر الإســـلام، وبعلمه استـــنار المسلمون طيلة عهود الخلافة الراشدة.

وقد ورد في فضائله وتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ما يجعله أهلا للأسبقية. مع قرابته القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم الأمة لآل البيت.

روى الترمذي عن زيد بن أرْقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كنت مولاه فعليٌّ مولاه". وهو حديث صحيح. وروى الشيخان والترمذي واللفظ لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أنت مني بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي".

وعند إخوتنا الشيعة نصوص موثقة لديهم، يفهمون منها أن هذا الحديث وأمثاله وصيةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة من بعده لعلي. ولديهم قصة غَدِيرِ خُم، أوصى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم

لعلي، ينكرها أهل الحديث عندنا. وقد رأينا في خبر البخاري ومسلم أن آل البيت كانوا يظنون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع وجود البَضْعَة النبوية سيدةِ النساء فاطمة رضي الله عنها، أن الأمر لهم.

فلما قُتل الإمام عثمان وافترق الصحابة بين قاعد عن علي كرم الله وجهه وبين مناصر له مُظاهر، وقع الصدعُ الخطير في الأمة، وساعدت ظروف الفتنة والحروب بين المسلمين على احتداد الخلاف واستفحاله. وظهر الإمام عليّ كرم الله وجهه وسط ذلك الظلام شمسا لامعة بالهدى، وجبلا راسخا وسط الزعازع، وقائدا عديم المثال. فغالى بعضهم فيه فعبده. وآخرون-

وهم الخوارج- قاطعوه وكفّروه وحاربوه. وطائفة بني أمية سبوه على المنابر.

فتأججت الأحقاد، وتوقدت غَيرة مُحبي آل البيت، ما زادت المِحَنُ التاريخية غيرَتهم إلا اشتعالا. لا سيما بعد استشهاد الإمام الحسين، أسد كربلاء وفخر الأمة، عليه السلام. وهكذا تكوَّن مذهب التشيع الذي يرى أن أمر الأمة والولاية عليها والخلافة فيها حقٌّ لآل البيت، لعلي وَوَرَثتِه الأئمة الأطهار عليهم السلام. يوصي بذلك الإمام لوارثه كما أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ كرم الله وجهه. هكذا يعتقدون.

لا حاجة بنا للتعرض لفرق الشيعة وغُلاة التشيع من الروافض والباطنية. فلئن كانوا في تاريخ الأمة آفةً ووَبالا ترك آثاراً بليغة لا تزال حية، فإن ما يعنينا لنصب

الجسور بيننا وبين إخوتنا الشيعة هو معرفةُ أصول الخلاف لتتضح لنا معالم مستقبل يعود فيه الصدع إلى الالتئام إن شاء الله كما يشاء الله ربنا الحكيم العليم. كما لا نتعرض لأهل النّصْبِ_نعوذ بالله_ ممن اندسوا تحت السنية ليثْلُبوا آلَ البيت ويُنقِّصوهم.

الاختيار

اتفق علماؤنا على أن الخلافة لا تكون بالنص والوصية، لكن باختيار الأمة. ونفَوْا الأحاديث الدالة على غير ذلك. يقول الباقلاني في كتاب التمهيد: "إن سأل سائل فقال: ما الدليل على ما تذهبون إليه من الاختيار للأمة وإبطال النص على إمام مُعيَّن؟ قيل له: الدليل على هذا أنه إذا فسد النَّصُّ صح الاختيار. لأن الأمة متفقةٌ

على أنه ليس طريقُ إثباتِ الإمامة إلا هذين الطــريقين. ومتى فسد أحدهما صح الآخر".[16] هكذا وُضِعَتْ قاعــدة جَدَلية تبنَّاها فقهاؤنا: "إذا فسد النص صــح الاختيــار". وتفرغ من علمائنا أمثال أبي بكر الباقلاني، والقاضــيين البغدادي والماوردي والغزالي وغيرهم لمحاربة الــنص وإثبات الاختيار.

كانت معركة الفقهاء هذه دَعما ضروريا للملوك على رقاب المسلمين الذين حكموا بالسيف والعصبــية. تَجَنَّد الفقهاء للدفاع عن مشروعية حكمهم إبَقاءً على وحــدة الأمة. كما تجند فقهاء الشيعة ليثبتــوا الــنص وينفــوا الاختيار فيــبرروا بذلك قومات آل البيت، وحكومات آل البيت. وصحب هذه المعارك الكلامية الفقهية منــاورات الحاكمين. فتجد مَلِكاً مثــلَ المــامون العباســي يتبنــى

[16] نصوص الفكر السياسي ص33.

الاعتزال، ثم يميل للشيعة، وهو في رسم النظام خليفةُ أهل السنة. ومن بعده الواثق والمعتصم. حتى كانت عودةُ المتوكل إلى مذهب أهل السنة. وكان الصراع الشديد بين أحزاب الحكم وأحزاب الشيعة، ثم بعد ذلك بين دولتي الفاطميين والعباسيين، يُستعْمَل سلاح الحديد، وسلاح الجدل، ليُقْنِعَ كلٌّ بصحة مذهبه بالقوة من لا يقتنع بالعقل.

السنة

كانت الأحزاب جميعا ولا تزال متفقة على صحة ما بين دفتي المصحف، وأنه كلام الله وإن اختلفوا في مخلوقيته. هذا والحمد لله فضل سابغ ومِنة عظمى. ولا يُلْتَفَتُ لما كان من خلاف بعض الصحابة لمصحف

عثمان رضي الله عنه. ويرجى أن تذبل فتموت بعـض أخبار عند إخوتنا الشيعة، في بعـض كتـبهم وينكرهـا عقلاؤهم، تفرض وجود قرآن ضائع.

أما السنة فهي عندنا ما ورد عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالسند الصحيح. وهي عندهم كذلك وإن كانت ثقتهم بالرجال تقاس بمعايـير غيـر معايـيرنا. لكن أهل السنة والجماعة يروُون الأحاديـث الـصحيحة عن الأئمة من آل البيت عليهم الـسلام. كـلام الأئمـة معصوم في اعتقاد الشيعة ويجب العمـل بـه. ولـيس الخطْبُ في هذا عسيرا على العلاج، فإنَّ أهل الحديث منا يستـندون إلى حديث الترمذي الذي يوصينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعض بالنواجذ على سنـته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده لكي يوسـعوا مـدلول

السنة إلى الأحاديث الموقوفة على الأربعة الراشــدين. ولا شك أن أئمة آل البيت عليهم السلام أهْلُ رُشْدٍ وعلم، ورثةُ بيت النبوءة. فما صح عنهم فهو علـــى الـــرأس والعين. لا أظن مومنا يطعن فيهم ويـــبقى مومنا. تبقى مسألة العصمة وهي شائكة.

العصمة

سيدنا علي والأئمة من بنيه أهــل عــصمة حــسب تعبـــير إخوتنا الشيعة. فزيادة على الـــنص والوصـــية، يتمتع أئمة آل البيت بالأفضلية علـــى أهــل عــصرهم، ويتمتعون بالتوفيق الإلهي، والإلهام، وهو غير الـــوحي

الخاص بالأنبياء. الإمام عندهم هو الأمين على الشريعة، له الحق وحده في زمانه أن يفسرها ويجتهد فيها. وشخص الإمام عندهم هو القبلة التي يجب أن تتوجه إليها الأمة، واليعسوب الذي يجب أن تجتمع عليه. وبعد الأئمة الاثني عشر -في مذهب الاثني عشرية- بقي الإمام المنتظر الغائب هو الحافظ لأسرار آل البيت. فما كان من اجتهاد الفقهاء فإنما هو بالنيابة عنه. والإمام الخميني بنظريته في "ولاية الفقيه" جدد المذهب الشيعي، حيث أعطى الفقيه المجتهد حق النيابة عن الإمام الغائب. وبذلك يرجى أن تجمع الضرورات العملية الوقتية والمستقبلية شطري الأمة بعد أن فرقها الصدع التاريخي والتعلق بآلام الماضي وخلافاته.

الإجماع

الإجماع هو الأصل الثالث من أصول الدين. فإذا اتفق علماء الأمة على حكم ليس فيه نــص قطعــيٌّ الثبــوت والدلالة كان اجتهادهم مُلْزِما. هذا عندنا. أما عند إخوتنا الشيعة فالإجماع هو الاتفاق على نــسبة الإمامــة إلــى رجل، والاتفاق على نسبة قول أو عمــل لواحــد مــن الأئمة. فمذهبنا أنسب لتــنشيط الاجتهاد، والتفاعل الحي مع أحداث التاريخ. لكن اختلــف علماؤنــا فــي معنــى الإجماع وحدوده، هل يقــف الإجمــاع عنــد الــصحابة والتابعين، وهل يُلزِم إجماع علماء عصر سابق علمــاءَ العصر اللاحق. ثم تــدخل الــسلطان ليــصنع إجماعــا لصالحه، انتهى بسد باب الاجتهاد، فعاشت الأمة علــى التقليد. ونشاهد في عصرنا عند إخوتنا الشيعة، وأمرهم

مبدئيا مبني على التقليد للأئمة الأطهار، اجتهادا مبتكرا ساعد عليه مؤسساتهم العلمية التي حييت في إيران والعراق في القرون الأخيرة، وازدهرت، وكونت نخبة من العلماء هم الآن في الحكم وفقهم الله.

التقليد

نرجو بهذا العرض الموجز أن نقف عند ما يلي:

1- إن إسلامنا الموروث انحدر إلينا من خلال تاريخ منكسر مليء بالصراعات المذهبية والعسكرية.

2- إن التراثيين المغربين الذين يرون في آراء الفقهاء، ضحية هذا الصراع وأطبائه، ركاما يجب نبذه ليرتفع عنا الحجر ونُعَصْرِنَ الدين، لا يمكن إقناعهم بأن أولئك الفقهاء حجة على عصرهم، وأن الأصلين القرآني

والسني كفيلان وحدهما برفع كل حاجز دون فهمنا لمقاصد الشريعة، ودون تجديدنا للمنهاج النبوي القرآني لمستقبل الخلافة. فلنفهم تاريخنا فهما غير فهمهم.

3- إن الأمة لا يمكن أن تواجه تحديات الحاضر والمستقبل إن لم تجمع ما فرقته عصور الخلاف. وإنما يمكن ذلك بنصب الجسور، والتعاون الفعلي في جهود البناء، لتكون نتائج البناء المشترك حافزا على توحيد النظرة بعد حين. لا ينبغي أن نؤجل الحوار، ولا أن نستعجل الوفاق، ولا أن نيأس لما نراه خلفنا من أهوال تاريخية. فإن تحولنا عن المواقف العاطفية، وعمقنا معاني الرحمة الأخوية الجامعة، فعسى يأذن الله جلت قدرته برجوع المياه إلى المجرى الأول.

4- إن وحدة الأمة إنما تتاح بالرجوع إلى أصولها الثابتة بالكف عن تغذية ذكريات المآسي وشرحها إلا بمقدار ما تحصل العبرة. وإن الإغضاء الكريم عن فروع الخلاف ضروري ليتسنى لنا الحفاظ على ما يجمعنا.

5- إن تأسيس مستقبل الوحدة لا يمكن أن يعتمد خلافا مذهبيا يُتخذ بمثابة الأصل. وإلا حكمنا على أنفسنا بسرمدية الخلاف والانشقاق، إن لم نزد الانكسار التاريخي تفتتا بما يستجد من مواقف متناقضة بين أعضاء أمة جعلها الله خير أمة، ونرجو أن يبتعثها ثانية لتعود شاهدة على الناس كما كانت. والشاهد لا بد أن يكون نموذجا في الثبات والثقة والقوة.

لنضع حداً لتقليد الأجيال المختلفـــة، لـــنكن شـــهداء بالحق عن أصالة كما كان السلف الــصالح رضـــي الله عنهم شهداء بالحق عن أصالة.

الفصل الرابع

كيف انقلبت الخلافة ملكا؟

الدين والسياسة

رِبْقَةُ الملك

دين الانقياد

"إذا قهرهم بالسيف"

إمارة الاستيلاء

أصل البلاء

مَناطُ البلاء

الاستخلاف

الدين والسياسة

لو كان ذلك الانكسار في فجر تاريخنا خبــرا مــضى وقبر لما كانت بنا حاجة لنبشه. اضطرمت نار الفتـــنة وبقيت مشتعلة قرونا طويلة، لا تخبــو إلا بمقــدار مــا تستعيد قابليتها للاشتعال. واليوم ينهض المسلمون فـــي فجر تاريخ جديد، وفي كيانهم، ثقافة وذكرى ومـــذهبا، آثار ذلكم الضرام. فهل يُنسينا بأسُ الجاهلية علينا اليومَ ما كان بينـــنا من بأس؟ وهل تعود الأمة فتلتحم علـــى وَهَجِ الجهاد الحاضر والمستقبل كما تصدعت فـــي نـــار الفتـــنة؟ نرجو من الله عز وجل ذلك.

من الآثار السيئة للفتـــنة تمادي بعض المسلمين في التغني بأمجاد الإسلام دون أن يُرجعوا الفضل بعــد الله عز وجل للأمة التي حملت إلى جانب أعباء الجهاد آلام

أنظمة العض والجبر وويلاتها. لا يزال بعضهم ينسب خيرا ساقه الله للأمة على يد علمائها وفرسانها وصلحائها لزيد أو عمرو من الملوك. ويدافع عن جبابرة سفكوا الدماء، وهتكوا الحُرَمَ، وخربوا الذمم، وعتوا في الأرض فسادا، لمجرد إبقاء واجهةٍ مموهة صنعها المتملقون، وربما شارك في نصبها تحت الضغط بعض فضلاء الأمة. يدخل هذا الفهم البطولي للتاريخ في دائرة التقليد. ومن يُقلد لا يستطيع أن ينتقد، وبالتالي يبقى في جهالة عمياء، لا يستبين الرشدَ لغده من عِبَرِ أمسه.

كتب الشيخ الجليل أبو الحسن الندوي في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" يذكر كيف فصل الملوك الدين عن السياسة، قال: "وقع فصل بين الدين

والسياسة عمليا. فإن هؤلاء (يعني الملوك) لم يكونـوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيـرهم مـن العلماء وأهل الـدين. فاسـتبدوا بـالحكم والـسياسة، واستعانوا -إذا أرادوا واقتـضت المـصالح- بالفقهـاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين. واستخدموهم فـي مصالحهم، واستغنوا عنهم إذا شاءوا، وعَصَروهم متـى شاءوا. فتحررت السياسة من رقابة الـدين. وأصـبحت قيصريةً أو كسرويةً مستبدة، وملكا عضوضا. وأصبحت السياسة كجمل هائج حَبْلُه على غاربِهِ. وأصبح رجـال الدين والعلم بين مُعَارِضٍ للخلافة، وخارجٍ عليها، وحائِدٍ مُنعزل اشتغل بخاصَّة نفسه، وأغمض العين عمـا يقـع ويجري حوله، يائسا من الإصلاح، ومنـتقدٍ متلهِّـفٍ، يتـنفس الصعداء مما يرى ويسمع، ولا يملك من الأمر

شيئا، ومتعاونٍ مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية. ولكلٍّ ما نوى. وحينئذ انفصل الدين والسياسة، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة. أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي. وأصبحت السياسة مطلقة اليد، حرة التصرف، نافذة الكلمة، صاحبة الأمر والنهي. ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقةً متميزةً، ورجالُ الدنيا طبقةً متميزةً. والشُّقَّة بينهما شاسعة. وفي بعض الأحيان بينهما عِداء وتنافس".[17]

[17] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. الطبعة السابعة ص133.

رِبْقَةُ الملك

قرأنا كيف كان أبو بكر يَحْزَن على ما تحَمَّلَــه مــن مسؤولية يخاف ألا يفي بها. ورأينا كيف ذكروا فــضل عمر لما "مشى ضحضاحها وخرج سليما لم تبتل قدماه".

فلما عادت مُلكا عاضا أصبح النظام بمثابة رِبقة حول عنق الأمة. لا هي استطاعت تحــت قهــر الــسيف أن تــتخلص من الاستبداد، ولا استطاع أن يخلصها منــه أفاضل الملوك الذين يَعْبرُون المجال ويــــبقى النظــام بعدهم مستمرا لا فكاك منه. وما حدث من ثورات فإنمــا استبدل أسرة بأســرة، وسُــلالةً بــسُلالةٍ، وعــصبــيّة بعصبــيّة. قال حكيم المؤرخين ابن خلدون: "واعلــم أن الخلاص من ذلك، (أي الملك) بعد الحصول فيه عــسير ممتــنع. فإنَّ صاحب هذا الغَرَضِ (أي الخــلاص مــن

الملك) إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمَكّنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهلُ العصبية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدمٌ لملكه، وإتلافٌ لنفسه، بمجاري العادة في ذلك. لأنَّ رِبقة الملك يعسُر الخلاصُ منها، سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها".[18]

أصبحت الأمة سجينة نظام الملكية، وأصبح السجان سجينا. وذلك من طبيعة العض كما جاء في لفظ النبوة. كان القهر والاستبداد قد أديا إلى موت كل شهامة وكل إرادة حرة في الأمة. فصارت "الرعية" مجموعة يتامى تحت وصاية حاشية البلاط وسيفها.

وإذا تتبعنا تاريخنا من أصوله عثرنا على سر هذا التطور الذي أخضع للسيف رقابا كانت حرة، وأرغم أنوفا كانت بعزة الإسلام شامخَة. كانت ذمة المومن الذي

[18] المقدمة ص504.

لا يخون وعده قد اغتيلت ورُوِّضَتْ لتدخل تحت طاعة المستبد. روى البخاري عن نافع قال: "لما خلع أهلُ المدينة يزيدَ بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمَهُ وولده فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُنْصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة. وإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بيعة الله وبيعة رسوله. وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله وبيعة رسوله، ثم ينصِبَ له القتال. وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع (يعني الذين خلعوا يزيد) في هذا الأمر إلا كانت الفيصلَ بيني وبينه".

هذا صحابي جليل وفيٌّ يخاف عاقبة الغدر. لكن كيف بايع؟

قال القاضي ابن العربي: "وقال ابن خياط: إن بـــيعة عبد الله ليزيد كانت كَرْهاً. وأين يزيد من ابـــن عمـــر؟ ولكن رأى بدينه وعلمه التسليمَ لأمر الله، والفرارَ عـــن التعرض لفتـــنة فيها من ذهاب الأنفس ما لا يفي بخلـــع يزيد. ولو تحقق أنّ الأمر يعود بعده في نصابه. فكيـــف وهو لا يعلم ذلك".[19] قال ابن العربي بعد هـــذا النقـــل: "وهذا أصل عظيم. فتفهموه والتزموه ترشُدوا إن شـــاء الله تعالى". يوصي رحمه الله وغفر لنـــا ولـــه بالوفـــاء بـــبـــيعة المستبد.

هكذا نرى أن فصل الدين عن السياسة كان في الحقيقة إخضاع الدين للسياسة، واستغلال تقوى المتقين لتطويقهم بـــبـــيعة الإكراه. ولما كانت الفتن المذهبـــية داء مقيما في تاريخنا، وكان الخوف من

[19] أحكام القرآن ج 2 ص976.

ضياع الدين وسَط تلك الصراعات يسيطر على العقول، فقد أصبح قبولُ رِبْقة البــيعة الإكراهية "أصلا" يوصي به المشايخ تلامذتهم.

خلعَ علماءُ المدينة يزيدَ بن معاوية سنةَ ثلاث وستين، فكان القمع الوحشيُّ المعروف في التاريخ بوقعة الحَرَّةِ. قُتِل فيها مَقْتَلَةٌ عظيمة من أبناء المهاجرين والأنصار الأُباة. وقد رأينا الصحابيَّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف بقي على بــيعته: اجتهاد.

وبعد عبد الله بن عمر علماء جعلوا موقفــه أصـــلا: تقليد مميت.

كان الإمام مالك رضي الله عنه يجلس في مجالـــسه الحديثية ليحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ

"ليس على مستكره طلاق". وسمع الناس مقالة الإمـــام فاستندوا إليها ليقيسوا بـــيعة المُـــسْتَكَرَه علـــى طَـــلاقِ المستكْرَه. وكان أبو جعفر المنـــصور العباســـي ملـــك الوقت، فكان يرى في الحديث عن الاســـتكراه وبطـــلان عقوده خطرا. لا سيما وفي زمانه قام الإمام محمد بـــن عبد الله النفسُ الزكيَّـــةُ قومتـــه المـــشهورة، واســـتدل أصحابُه على جواز خلع العباسيِّ بحديث الاستكراه. نهى أبو جعفر مالكا عن رواية ذلك الحـــديث فـــأبى. وأوذي الإمام وضرب حتى خلعت كتفاه. وكان قلبه مـــع القـــائم محمد النفس الزكية. فكان اجتهاده رضي الله عنـــه أن يَخْلَعَ الربقَةَ.

دين الانقياد

سادت بعد طول التعسف والقهر روحُ الطاعة الخانعةِ للسيف بعد أن كانت البيعةُ في عهد الخلافة الراشدة عَقدا اختياريا. كانت عقدا يعطي الإمامَ حقَّ السمع والطاعة بشروط. فأصبحت البيعة اسما للانقياد بلا قيد ولا شرط. وأُلحقَتْ أحكامُ المبايعة وشؤون الإمامة بكتب الفقه كأنها فروعٌ لا خطر لها. بينما هيمن على حياة الأمة "دين الانقياد". وأول حكم من أحكام دين السيف قول أحدهم، ولا نذكر اسمه فإنه لا يهم، في مجلس بيعة إكراه: "من قال لنا برأسه هكذا (أي امتنع عن البيعة) قلنا له بسيفنا هكذا!".

قال حكيم المؤرخين: "واستحكمت لأهل ذلك النصاب (أي الملوك) صبغةُ الرئاسة. ورسخ في العقائد دينُ

الانقيادِ لهم والتسليمِ. وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالَهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عِصابة (يكفي شرطة وجلادون!). بل كأن طاعتها كتابٌ من الله لا يُبَدَّلُ ولا يُعْلَم خلافُه. ولأمْرٍ ما يوضَع الكلامُ في الإمامة آخرَ الكلام على العقائد الإيمانية".[20]

"إذا قهرهم بالسيف"

روى القاضي أبو يعلى قال: "ورُوِي عنه (عن الإمام أحمد) أنها (الإمامة) تثبت بالقهر والغلبة ولا تفتقر إلى العقد. فقال في رواية عبدوس بن مالك العطار: ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّيَ أمير المومنين، فلا يحلّ لأحد يومن بالله واليوم الآخر أن

[20] المقدمة ص272.

يـــبـــيت ولا يراه إماما، بَرّاً كان أو فاجراً. وقال أيـــضا في رواية أبي حارث في الإمام يخرج عليه من يطلـــب الملك، فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم: "تكون الجماعة مع من غلب". واحتج بأن ابن عمر صلى بأهل المدينـــة في زمن الحرة، وقال: نحن مع من غلب".[21]

من بين الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالصبر على جَوْر الحكام أو عصيانهم عندما يكون أمرُهم مخالفا للدين حديث أورده الإمام أحمد في مسنده مرفوعا. وقد قرأنا فتواه التي رواها عنه أبو يعلى الفقيه الحنبلي والتي يستـــند فيها إلى قول صحابي ليُفْتِيَ بإمامة الغالب وبأن الجماعة مع السيف. لا يُظَنَّ بأئمتـــنا إلا أنهم احتاطوا لدينهم وللأمة جزاهم الله

[21] نصوص الفكر السياسي الإسلامي ص241.

خيرا. وهم كانوا أبْصَرَ بواقعهم وأقدر على وزن النـــتائج المترتبة على الصبر أو المناهضة.

لكن الحديث الذي أورده الإمام أحمـــد ولـــم يعتمـــده يـــبدو لنا سندا لفتوى تـــناسب زمانـــنا تمام المناسبة. روى عن حذيفة رضي الله عنه قـــال: "كـــان أصـــحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يـــسألونه عـــن الخيـــر وأسأله عن الشر. فقلت: يا رسول الله! هل بعد الخيـــر من شر كما كان قبله شر؟ قال: نعم! قلت: فما العـــصمة منه؟ قال: السيف أحسَبُ! أبو التياح (أحد رجال الحديث) يقول: السيف أحسَبُ! قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم تكون هدنة على دخن. قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم تكون دعاةُ الضلالة. قال: فإن رأيت يومئذ خليفـــة الله فـــي الأرض فالزمه وإن نُهِكَ جسمُك وأخِذَ مالُك. فإن لم تره فاهرب

في الأرض ولو أن تموت وأنت عاض بجِذْلِ شجرة! قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم يخرج الدجال. قال: قلت: فما يجيء به معه؟ قال: بنهرٍ أو قال ماءٍ ونارٍ، فمن دخل نهره حُطَّ أجرُهُ ووجب وزْرُه، ومن دخل ناره وجب أجرُه وحُطَّ وزرُه. قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: لو أنتجتَ فَرَساً لم تركب فِلوها حتى تقوم الساعة. قال شعبة حدثني أبو بشر في إسناد له عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: قلت: يا رسول الله! ما هدنة على دخن؟ قال: قلوب لا تعود على ما كانت".

كلمة "السيف أحسَبُ" التي نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤكدها راوي الحديث كلمة مهمة نقف عندها للتأمل ولاستنباط فريضة مقاومة الاستبداد. هناك أحاديث نبوية أخرى تأمر بمحاربة دعاة الضلالة إن

أظهروا كفرا بواحا. وكلمة "السيف أحسب" تعطينا علاج الخمـــــول والانقياد للحاكم المستبد. فلا يقهر السيفَ إلا السيفُ متى فــشلت الوســائل الــسليمة والقومــات الجماهيرية وعجزت عن كف أغلال ربقة الملك العــاض والجبري. والحَسَبُ في لغة العرب الشرف. فلا عــصمة من الشر إلا بمقاومته والتصدي له.

إمارة الاستيلاء

إن القول بإمامة المتغلب ما هو إلا التمــاس فقهــي لفتوى تجمع أمر الأمة الشتيت في شبه مشروعية. إنه يــنبئ عن مرونة الفقهاء الذين ارتكبوا أخف الضررين حين تفاقم حكمُ السيف، وظهرت دولٌ في الدولة. فــأراد الفقهاء أن يدخلوا السلطان الفعلي الذي كان لبني بويــه

والسلاجقة والغزنويـــين وسائر هذه التكــتلات القبليـــة تحت السلطة الاســمية للــسلطان المركــزي. فكـــان "الخليفة" العباسي لا يستطيع أن يولي على الأقاليم مـــن شاء، فيُضْطَرُ للاعتراف بالمستولي المسلَّح الممتــــنع عن طاعة الدولة. وهكذا يـــبقى للدولة اسم يـــذكر فـــي خطبة الجمعة أو أثر ينشر على شكل سِكة تحلى بأسماء "الخلفاء".

يقول القاضي أبو يعلى في كتاب "الأحكام السلطانية": "فأما إمارة الاستيلاء التي تعقد على اضطرار فهـــي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتهـــا، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها(...). وهذا وإن خـــرج

عن عُرف التقليد المطلق ففيـــه مـــن حفـــظ القـــوانين الشرعية ما لا يجوز أن يُتْرَك فاسدا".[22]

الفقيه الجليل يرى أن الفساد قد أُصْـلِحَ إن حافظنـــا على المظاهر والشكل. تشبثهم رحمهم الله بوحدة الأمة والأمة تـــنقض عراها، حسب التعبـــير النبوي، ألجأهم إلى القناعة بأدنى مظاهر وحدة السلطان.

ويُفَصِّلُ الماورديّ الاستيلاء تفصيلا فيقول: "فـــصل، وأما نقص التصرف فضربان: حَجْرٌ وقهر. فأما الحجـــر فهو أن يستولي عليه من أعوانه من يـــستبد بتـــــنفيذ الأمور من غير تظاهر بمعصية، ولا مجاهرة بمُـــشاقَّةٍ، فلا يمنع ذلك من إمامته، ولا يقدح في صحة ولايته".

نقول: إذا ســـلمت الواجهـــة فالاســـتبداد لا يـــسمى معصية، والإمام يـــبقى إماما، والوالي واليا! كذلك حكم

[22] نصوص الفكر السياسي الإسلامي ص260.

السيف: مستبـــد على مــستبد والدنيـــــــــا لمــن غلب.

ثم يضيف القاضي الجليل: "ولكن ينظر في أفعال من استولى على أموره. فإن كانت جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل جاز إقرارُه عليها تــنفيذا لها، وإمضاء لأحكامها، لئلا يقف من الأمور الدينية ما يعــودُ بفــساد على الأمة. وإن كانت أفعالُه خارجة عن حكــم الــدين ومقتضى العدل لم يجــز إقــرارُه عليهـــا، ولزِمَـــهُ أن يستــنصر من يقبض يدَه، ويُزيل تغلُّبَه".[23]

كلمة "حَجر" التي استعملها الماوردي كلمة حَيــــيَّةٌ تُخْفي تعسف أمراء العساكر الذين كانوا يلعبون بالملوك العباسية بعد المعتصم. فينصبون من أطاعهم، ويطردون ويعذبون ويسملون عيون من عصاهم. وكانـــت الأمـــة

---
[23] الأحكام السلطانية ص21.

بمعزل عن كل هذا، تدين بدين الانقياد. والجملة الأخيرة تـــنبئ عن المؤامرات التي كانت تُحاك في البَلاط لضرب بعض المستبدين العساكر بعضِهم بـــبعضٍ.

تفتُّـــتٌ في السلطة حاول الفقهاء المبَجَّلون أن يَلُموه ويجمعوه في سماء الفقه بروابط الاستدلال.
وهيهات أن يستقيم لعلمائنا الأتقياء ما أرادوا والأمة يدوسها كل دائس، والباب مفتوح لكل عصبـــية مسلحة أن تـــتغلب فتفوز بفتوى: "نحن مع من غلب".

أصل البلاء

روى أبو داود والترمذي عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم: "الخلافة في أُمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد

ذلك. قال سعيد بن جمهان (الراوي عن سفينة): ثم قال (أي سفينة): أمسكْ! (أي احسُبْ): خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان. ثم قال: أمسِكْ: خلافة علي. فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد فقلت له: إن بني أمية يزعمون أنَّ الخلافة فيهم! قال: كذبوا بَنُو الزرقاء! بَل ملوكٌ من شر الملوك". هذه رواية الترمذي.

وعند أبي داود: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يوتي الله الملك من يشاء. قال سعيد: قال لي سفينة: أمسك: أبو بكر سنتين، وعمر عشرا، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ستا. كذا قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أنَّ عليا لم يكن بخليفة! قال: كذبَتْ أسْتَاهُ بني الزرقاء!

يعني بني مروان". هذا حديث حسن. قال الحافظ في الفتح: "رواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان.

مَناطُ البلاء

بدأ البلاء بالملوك شر بداية كما قال الصحابيُّ وكما أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجثم على صدر الأمة الحكم الوراثي الذي لا نزال نعانيه. والوراثة مَناط البلاء لأنها تعني غياب اختيار الأمة، وعزلَها عن أمرها الذي فرض الله أن يكون شورى. تعني حكم الغِلْمة الذين على أيديهم هَلَكَةُ الأمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعوذ بالله من إمارة الصبيان". قالوا: وما إمارة الصبيان؟ قال: "إن أطعتموهم هلكتم

(أي في دينكم) وإن عصيتموهم أهلكوكم (أي في دنياكم)". كذا نقل الحافظ في الفتح عن علي بن معبد وابن أبي شيبة. قال: وفي رواية ابن شيبة أن أبا هريرة كان يمشي في السوق ويقول: "اللهم لا تُدركْني سنة ستين وإمارة الصبيان". قال الحافظ: "وفي هذا إشارة إلى أن أول الأُغَيلمة كان في سنة ستين. وهو كذلك، فإن يزيد بن معاوية استُخلف فيها".

قلت: وهكذا بدأت بدعة الوِراثة العاضة التي كانت في تاريخنا مناطَ البلاء كله.

وما زالت بدعة الوراثة تسير في طريقها الطبيعي حتى تطورت إلى اللعب السافر بالأمة. تريد الأُسرة الحاكمة، والعصبية الجاثمة، والنظام المتسلط، أن تحافظ على مصلحتها وبقائها، فينصِب الحاكمُ ابنه، أو

واحداً من قرابته، وليا لعهده. ويعطون لهــذه الوِلايــة الفاجرةِ صبِغةً شرعية عندما يُكرهون الناس على بــيعة الوارث. وهي في الحقيقة بَــيْعٌ للدين، لا بَــيْعة يُقرهــا الدين. نُصِبَ الصبــيانُ سادةً على رؤوس الأمــة، بــل بويع حتى لمن لم يولــد. وهكــذا فــسدت أداةُ الحكــم، وشُوِّهَتِ السلطة، وعُبدت الأصــنامُ الوراثيــة. وعَبــث الغلمان، وعُبِث بهم. فذلك هلاك الأمة كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

قال ابن خلدون: "صبي صغير، و مُضَعَّفٌ من المَنْبتِ (أي الأسرة)، يترشح للولاية بعد أبيه، أو بترشيح ذويه وخَوَله. ويُؤنَسُ منه العجزُ عن القيام بالملك، فيقومُ به كافله من وزراء أبيه وحاشــيته ومواليــه أو قبــيله. ويُوَرّي عنه بحفظ أمره عليه، حتى يونَسَ منه الاستبداد

(يعني أنَّ الكافل يوهم الصبيَّ أنه لا يعمل إلا لمصلحته، حتى يتمكن الكافلُ فيستبد بالأمر). ويجعل ذلك ذريعةً للملك. فيحجبُ الصبيَّ عن الناس، ويُعَوِّدُهُ اللذاتِ التي يدعوه إليها ترف أحواله. ويُسيمُه في مراعيها متى أمكنه. ويُنسيه النظر في الأمور السلطانية، حتى يستبدَّ عليه. وهو (أي الصبي) بِمَا عوَّده، يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوسُ السرير، وإعطاءُ الصفقة، وخطابُ التهويل، والقعود مع النساء خلف الحجاب".[24] ويرحم الله ابن خلدون فقد عاش هذه الأمور وشارك فيها، فهو يُخْبِر عن تجربة.

الاستخلاف

[24] المقدمة ص329.

بدأت ولاية العهد الملكية وكأنها امتداد للاستخلاف الذي سنه أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه عندما استخلف من بعده عمرَ. كانت ولاية العهد الملكية شكلا أُفْرِغَ من معناه، لأن الخليفة الراشد اجتهد للأمة فاختار لها أقدر الرجال، والملوك ما دفعهم لتوريث أبنائهم إلا الحرصُ على بقاء السلطان في السلالة. وشتان بين استخلاف لا يتعدى أن يكون إشارة لراعي المصلحة العامة الخبير بالرجال، ثم ترضى الأمة فتبايعُ أو تختارُ لنفسها، وبين وراثة الملك العاض الناشِبِ أظفارَه في الفريسة، تتعاقب على افتراسها الأجيالُ المترفة!

استندوا إلى الدين فجعلوا البيعة ربقة في عنق المتقين. وما فطِن الأخيار، بل تغاضوا، أن بيعة ولي العهد عُقْدَةٌ باطلةٌ لأنَّ أحَد الطرفين غشَّ في النية،

وغش في دعوى الكفاءة والعلم والتقوى، وكلها شروط ضرورية لصحة البـيعة.

نقل الحافظ في الفتح عن الإمام النووي وغيره قالوا: "أجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف، وعلى انعقادها لعقد أهل الحل والعقد لإنـسان حيـث لا يكـون هنـاك استخلافُ غيرِه. وعلى جعل الخليفة الأمرَ شورى بـين عدد محصور أو غيره".[25]

وذكر الماورديُّ الإجماع على صحة إمامة المستخْلف مستشهدا برضى الصحابة بصنيع أبـي بكـر. وذهـب مذهب الجمهور الذي حكاه الحافظ من أن رِضى الأمـة وسخطها سواء، وأن بـيعة المستخلَف تَلْزَمها على كل حال. لكنه أورد رأيا هو في نظرنا الأسَدُّ والكفيل وحـده بسد الذريعة التي دخل منها على الأمة البلاءُ، فعـشش

---

[25] فتح الباري ج 13 ص208. طبعة المكتبة السلفية.

وفرخ. قال: "فذهب بعض علماء أهل البصرة إلى أن رضى أهل الاختيار لبيعته (أي المستخلف) شرط في لزومها للأمة، لأنها حق يتعلق بهم، فلم تلزمهم إلا برضى أهل الاختيار منهم".[26]

ولعل عبقريَّ الأمة عمر رضي الله عنه نظر للأمة نظراً صالحا للتطبيق، لا سيما وهو نظر يحترم الأمر القرآني، أن يكون أمر الأمة شورى بينها. فجعل الاستخلاف في جماعة. قال الحافظ ابن حجر: "قال ابن بطال ما حاصله: إن عمر سلك في هذا الأمر مسلكا متوسطا خشية الفتنة، فرأى أن الاستخلاف أضبطُ لأمر المسلمين. فجعل الأمرَ معقوداً موقوفا على الستة، لئلا يترك الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر. فأخذ من فعل النبي طرفا وهو ترك التعيين، ومن

[26] الأحكام السلطانية ص10.

فعل أبي بكر طرفاً وهو العقد لأحد الستة، وإن لم يَنُصَّ عليه".[27]

كان الصحابة رضي الله عنهم يرون في صنيع أبـي بكر عندما استخلف إجْراءً رشـيدا. فقـد جـاء عنـد الشيخين وغيرهما حديث عن عبد الله بـن عمـر أنـه تجادل مع أم المومنين أُخْتِهِ حفـصةَ، هـل يـستخلفُ والدهما أو لا؟ فذهبت حفصة إلى عمر فقالت: "زعمـوا أنك غيرُ مستخلف! وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها لرأيت أنه قد ضيع. فرعايةُ الناس أشد".

وذكر ابن قتيـبة في كتاب "الإمامة والسياسة" أن أبا بكر خطب الناس عند احتضاره، وخيَّرَهم بين أن يتـرك لهم أمرهم يأتمرون ويتشاورون فيه، وبـين أن يختـار

[27] فتح الباري ج 13 ص207.

لهم. فقالوا: "يا خليفة رسول الله! أنت خيرُنا وأعلمنـــا، فاختر لنا".

نستخلص من هذا أن الاستخلاف قد يكون توجيهـــا لاختيار الأمة يساعد علـــى الاســـتقرار. لكنـــه إن تـــم استبداداً من الإمام يوشك أن يصبح مزلقة نحو الكارثة. والأصل الشورى. روى الحاكم عن علي أن رســـول الله صلى لله عليه وسلم قال: "لو كنت مستخلفا أحـــدا مـــن غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد".

كان عثمان رضي الله عنه أقربَ المستشارين لعمر، وكانوا يُسَمُّونه رديفاً. فكرة الرديـــف هـــذه يمكـــن أنْ تـــنفعنا في غد الخلافة لأنها تسد فجوة بعد غياب الإمام ريثما تأتمر الأمة.

الفصل الخامس

الشرع ذم الملك

بين العيب والضرورة

المتملقون

الجاه والمال

جباية وترف

ساعدته الشوكة

انـــتهى عهد ألف ليلة وليلة!

بين العيب والضرورة

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية قال: "الغرض هنا بيـــان "جماع الحسنات والسيئات" الواقعة بعد خلافة النبوة في الإمارة وفي تركها. فإنه مقام خطير. وذلـــك أن خبـــره (أي النبي صلى الله عليه وسلم) بانقضاء خلافة النبـــوة فيه الذم للملك والعيبُ له. لا سيما وفي حديث أبي بَكْرَةَ أنه استاء للرؤيا وقال: "خلافة نبوة، ثم يوتي الله الملك من شاء". ثم النصوص الموجبة لنصب الأئمة والأمراء، وماضي الأعمال الصالحة التي يتولونها مـــن الثـــواب، حمدٌ لذلك، وترغيبٌ فيه. فيجب تخليصُ محمودِ ذلك من مذمومِه. وفي حكم اجتماع الأمرين. وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خُيِّرْتُ بين أن أكون عبدا رسولا وبين أن أكون نبيا مَلِكا، فاخترت أن أكون عبـــدا رسولا".[28]

---

[28] ابن تيمية في الفتاوي ج 35 ص21.

هكذا وازن الشيخ ابن تيميـــة بـــين عيـــب الملـــك وضرورته. في كلام يكشف عن معاناة فقهائنـــا، وهـــم مضطرون للدفاع عن الأمر القائم، خوفـــا مـــن انهيـــار الوحدة الإسلامية. لكن الفقيه الجليل يـــــبوح بدخيلـــة نفسه بعد صفحات فيكتب: "مثل من لا تطيعه نفسه إلـــى القيام بمصالح الإمارة(...). لا بحظوظ منهي عنها مـــن الاستـــئـــثار بـــبعض المال، والرياسة على الناس (أي الاستبداد)، والمحاباة فـــي القَـــسْم، وغيـــر ذلـــك مـــن الشهوات(...)، فهذا القِسْمُ كثر في دول الملوك. إذ هـــو واقع فيهم وفي كثير من أمرائهم وقـــضاتهم وعلمـــائهم وعُبَّادهم. أعني أهل زمانهم. وبسبـــبه نشأت الفتن بين الأمة".[29]

[29] نفس المصدر والجزء ص30.

الرجل يعلم يقينا أن فساد الحكم أفْسَدَ المجتمع. ولاحِظْ كيف ينسب أصناف الناس إلى الأمراء الفاسدين: "قضاتهم"، "علمائهم"، "عبادهم"، ليشير إلى وجود جحافل من الوصوليين السائرين في ركاب الحاكم.

ويدافع ابن خلدون عن الملك من نفس الموقع، إذ يوازن بين سيئاته وضرورته. يقول: "واعلم أن الشرع لم يَذُمَّ الملك لذاته ولا حَظَرَ القيام به. وإنما ذَمَّ المفاسدَ الناشئة عنه من القهر، والظلم، والتمتع باللذات. ولا شك أن هذه مفاسدُ محظورةٌ، وهي من توابعه. كما أَثْنَى على العدل، والنَّصَفَةِ، وإقامة مراسِمِ الدين، والذَّبِّ عنه. وأوجب بإزائها الثوابَ وهي كلّ من توابع الملك. فإذن

إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخـــرى. ولم يذمَّه لذاته".[30]

إذا كانت مفاسد القهر، والظلم، والاستبداد، والانحلال الخلقي، ناشئةً عن الملك، لازمة له، فكيف تـــنـــتظر أن يصبح الفساد صلاحا؟ وكيف نبرئ "ذات" المُلك وهي لا تـــنفك عن صفات المُلك؟ إن فسادَ النظام من أساسه لا يمكن أن يغيب عن العاقل بظهور أفراد صـــالحين مـــن الملوك والأمراء. فتلك استـــثـــناآت من القاعدة. ويكفي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه ملكا عاضا أو عضوضا بصيغة المبالغة. وهل العض من صفات الحمد أو من صفات الحيوانية؟

المتملقون

30 المقدمة ص341.

كتب الإمام الغزاليُّ رسالة رائعة لمُجير الدين، أحـدِ أُمراء زمانه قال: "وأما إغاثـة الخلـق فواجبـة علـى العموم. حيث إن الظلم قد جاوز حده. وقد مـضى مـا يقرب من سنة منذ هجرت طوس حتـى أتخلـص مـن مشاهدة الظالمين الذين لا رحمة ولا حرمة لهم. وبحكم الضرورة أُتيح لي الرجوع، فوجدت الظلم متواتراً كمـا كان، وعذاب الخلق باقيا ومتزايدا".

ويتعرض لذكر خَدَم الأمير وحاشـيته فيكتـب: "وإذا تأمل عرف بأنهم لا يخدمونه، بل يخـدمون أطمـاعهم وشهواتهم، وأن ثناءهم ومدحهم وإظهار مودتهم غيـرُ خالصةٍ له. وفي الحقيقة صداقتهم ليست إلا لتلك الدراهم الخسيسة المأخوذة منـه. فهـي مـسخرة، وواسـطة لأطماعهم، يخدعونه بالخدمة، وإظهار الـصداقة. فـإذا

سمعوا إرجافا بأن المخدوم يفكر في عزلهم وتولية الآخرين، أعرضوا عنه، واتخذوا عِداءه أضعاف تلك الخدمة".[31]

الجاه والمال

الدراهم الخسيسة، وشراء الضمائر، واستغلال النفوذ، من لوازم الأنظمة الفاسدة. خذ شهادة مجرب هو ابن خلدون: "والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، فتفيد الغنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام يَسارا وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش".[32] "إن الحضري إذا عظم تموُّله(...) زاحم عليها الأمراء والملوك وغُصّوا به. ولِما في طباع البشر من العُدوان،

[31] فضائل الأنام ص97.
[32] المقدمة ص693.

تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده، وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن، حتى يحصلوه في ربقة حكم سلطاني، وسَبَبٍ من المؤاخذة ظاهرة (يعني أنهم يوقعونه في فخ) ينتزع به ماله. وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب. إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية".[33]

جباية وترف

كلمة ترف كلمة قرآنية تفيد الترفه والتوسع في النَّعمة كما قال الراغب الأصفهاني. والترف مذموم في القرآن لأن الترف قرين الاستكبار والكفر والصد عن سبيل الله. ونجد عند مؤرخنا النابغة ابن خلدون تحليلا لسقوط الدول وتفتت المجتمع لا يقف عند العوامل

[33] نفس المصدر ص655.

السياسية والاقتصادية، وإنما يدمج فيها عامل الفساد الخلقي الناتج عن الترف. هذا التحليل يسير في خط القرآن. نظام الملك هو البيئة التي يولد فيها الترف ويزدهر. وظهوره وازدهاره ثمرةُ تلاقُحٍ بين استغلال النفوذ، واحتجان الأموال بالباطل. الترف زهرة مزابل الفساد السياسي الاقتصادي. فهو تركيب نفسي مواكب لحركة الاقتصاد والسياسة والاجتماع. ولا توجد كلمة ولا مدلول يقاربها في فكر المؤرخين الفلاسفة الماديين وتحليلهم. هذا جانب من جوانب تفوق التحليل الإسلامي على التحليل المادي.

هاك نموذجا لرصد ميلاد الترف، واستفحاله، وعلاقته بالكل السياسي الاقتصادي الاجتماعي. قال مؤرخنا: "ثم يحصل الاستيلاء ويعظم، ويستفحل الملك،

فيَدْعو إلى الترف، ويكثر الإنفاق بسببــه. فتعظم نفقات السلطان وأهلِ الدولة على العموم. بل يتعدى ذلك إلـــى أهل المِصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أُعْطِياتِ الجند، وأرزاق أهل الدولة. ثم يعظم الترف، فيكثر الإسراف في النفقات، وينـــتشر ذلك في الرعية، لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البِـــياعات في الأسواق لإدْرارِ الجِباية، لِمـــا يراه من ترف المدينة الشاهدِ عليهم بالرَّفَهِ. ولِما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد الترف، فلا تفي بهـــا المكـــوس. وتكـــون الدولـــة قـــد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحـــت يـــدها مـــن الرعايا. فتمتد أيديهم إلـــى جمـــع المـــال مـــن أمـــوال الرعايا".[34]

[34] المقدمة ص525.

ساعدته الشوكة

مع أن الشرع ذم الملك، ومع أن علماءنا كانوا على بـــينة من أن نظام الوراثة فاسد، فقد دافع كثير مـــنهم عن هذا النظام مخافة الفوضى واختلال أمر الأمة. هـــذا الإمام الغزالي يكتب: "لأن السلطان الظالم الجاهل مهمـــا ساعدته الشوكة، وعسُرَ خَلْعُه، وكان في الاستبدال بـــه فتـــنةٌ ثائرة لا تطاق، وجب تركـــه، ووجبـــت الطاعـــة له".[35]

يكتب هذا نفس الغزالي الذي يشجب الظلم وتعـــذيب الخلق ونظام "الدراهم الخسيسة". وكأن النظام الـــوراثيّ الاستبدادي مرضٌ أصاب الأمة، فتعلمت حـــين أعياهـــا الدواء كيف تعايشه. وقدَرُ الله الذي نطق بـــه الـــصادق

[35] الإحياء ج 2 ص124.

المصدوق ماضٍ. وشرعُه يفرض علينا أن نُــنْهي هــذا المنكر.

انــتهى عهد ألف ليلة وليلة!

نقرأ معا صفحة مشرقة بالأمل في مستقبل الإســلام، مكفهرة بالغضب على دول الفتــنة، لواحد من أبلغ كتاب الإسلام المعاصرين، وأبصرهم بــشؤون هــذه الأمــة: الشيخ الجليل أبي الحسن الندوي. قال: "هذا هو العهــد (عهد الملوك) الذي ازدهر في الــشرق طــويلا وتــرك رواسبَ في حياة هذه الأمــة ونفوســها. وفــي أدبهــا وشعرها وأخلاقها واجتماعها. وخلف آثارا باقيــة فــي المكتبة العربية. ومن هذه الآثار الناطقة كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي يصور ذلك العهد تصويرا بارعا، يومَ كــان

الخليفة في بغداد، والمَلِكُ في دمشق أو القاهرة، هو كل شيء،وبطل رواية الحياة،ومركـــز الــدائرة. إن هــذا العهد(...) لم يكــن عهدا إسلاميا، ولا عهدا طبـــيعيا معقولا.فلا يرضاه الإسلام ولا يُقره العقـــــل.بل إنمــا جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه. فقد كــان هذا هــو العهد الذي بعــث فيه محمد صلى الله عليه وسلم فسماه الجـــاهلية،ونعى عليه وأنكـــر على ملوكه -ككسرى وقيصر- وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار.(...).

" إنه وضع شاذ لا ينبغي أن يــبقى يوما فضلا عــن أن يــبقى أعواما. إنه إن سبق في عهــد مــن عهــود التاريخ، وبقي مدة طويلة، فقد كان ذلك على غَفْلة مــن الأمة، أو على الرغم منها، وبسبــب ضــعف الإســلام، وقوة الجاهلية. ولكنه خليق بأن ينهار ويتــداعى كلمــا

أشرقت شمس الإسلام، واستيقظ الوعي، وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها.(...) ألا إنّ عهد "ألف ليلة وليلة" قد مضى، فلا يَخْدَعَنَّ أقوام أنفسهم، ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت. إن الملوكية مصباح-إن جاز هذا التعبير- قد نَفِدَ زَيْتُه، واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة.(...) (هي سفينة) فخير للمسلمين وخير للعرب أن يخلصوا أنفسهم منها، ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تَغْرَق فيَغْرَقوا معها".[36]

[36] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص289-291.